

حوار فلسفي مع الدكتور زكي نجيب محمود

بقلم أحمد ماضي

وبعد أن تركت المنطقية الوضعية شؤون الإنسان ومشكلاته التي لا عد لها ولا حصر في عالمنا هذا وأغفلت العالم الذي نعيش فيه وتفاعل معه وتقوم بتفسيره من أجل رفاه الإنسان بالسيطرة على قوى الطبيعة واستغلالها لسعادة الإنسانية ، يطلع علينا الدكتور زكي بقول نجد فيه الغرابة والاستهجان : « .. لعل أقرب الاتجاهات الفلسفية الى جانب العلم وجانب العقل من الحضارة الراهنة هو اتجاه الوضعية المنطقية - كما أطلق عليه عند أول ظهوره في « قينا » في العشرينات من هذا القرن - وهو نفسه اتجاه التجريبية العلمية - كما يطلق عليه عادة الآن .. » (فلسفة وفن ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨) .

ومع أن هذه الفلسفة تعتمد العقل وتستند الى العلم ، كما يزعم مؤسسوها وأنصارها ، فانها لا تجد أتباعا لها لا في صفوف المثقفين ولا في أوساط المثقفين العاديين ناهيك عن جماهير الناس البسطاء في وطننا العربي . وقد اعترف المفكر المصري ، بحزن وكآبة ، عندما كتب : « .. واذا كانت هذه الدعوة العقلية الصارمة لم تجد في الغرب أذانا مصغية الا عند صفوف المتخصصين فهي عندنا لا أمل لها حتى عند هؤلاء الصفوة ، فكانت هذه الأسطر من أشياعها ودعاتها ، لكنه يكاد يكون في الميدان وحيدا ، يتكلم لغير سامع ويكتب لغير قاريء ، لان الدعوة الى العقل الصرف لا تجد في أنفسنا صدى .. » . (فلسفة وفن ، ص ٢٤٨)

وهكذا نرى أن فلسفة الوضعية المنطقية لا تجد ، بتصريح الاستاذ الفاضل ، أشياعا وأتباعا لها ما عدا الدكتور زكي نفسه وبعض الافراد مع انها فلسفة العقل والعلم وعلى الرغم من جهوده الجبارة في قراءة المحاضرات وتأليف الكتب وكتابة المقالات للدعاية لمبادئ هذه الفلسفة على مدى نحو عقدين من السنين . فهو ، بدآب وحماس شديد ، يدافع وينشر فلسفته . وكل ذلك عبث في عبث مع أنه يملك التأثير القوي بصفته استاذاً في جامعة القاهرة وعضواً في بعض هيئات تحرير المجلات المصرية بالإضافة الى أنه رئيس تحرير سابق لمجلة « الفكر المعاصر » . ان جهوده ومحاولاته لم تكلل بالنجاح المطلوب لان عدد انصار فلسفة الوضعية المنطقية لم يتعد بضعة افراد . لقد بقيت هذه الفلسفة ذات تأثير ضيق الحدود .

وبالرغم من أن الدكتور زكي يعتبر نفسه فيلسوفا علميا يستند الى العقل في تفكيره فانه لا يقدم للقراء تفسيراً علمياً يتفق مع العقل لظاهرة عدم انتشار الوضعية المنطقية لا في أوساط المثقفين ولا في دوائر الجماهير . ومرد ذلك في نظري الى عدة أسباب أهمها عدم موافقتها لجرى التطور الموضوعي ولانها لا تطرح ولا تحل القضايا والمشكلات التي يواجهها الشعب على طريق تطوره نحو مستقبل مزدهر وغد مشرق .

واذا كانت « المأساة » تتجسد في كون الوضعية المنطقية فلسفة علمية وعقلية فان السؤال التالي لا بد ان يتبادر الى الأذهان : - لماذا تجد مبادئ الاشتراكية العلمية وأفكارها صدى ودعم ليس لدى الدوائر الحاكمة في ج.ع.م بل وفي صفوف المثقفين الثوريين وأوساط العمال والفلاحين ؟ لا ريب في أن سبب الانتشار والتأييد يعود الى أن فلسفة الاشتراكية العلمية ليست فلسفة تأملية معلقة في الهواء وانما فلسفة متصلة اتصالاً وثيقاً بالواقع واهتمامات البشر . ولهذا السبب بالذات ليس من قبيل الصدفة انتقال أعداد غفيرة الى مواقع

ليس يخاف على أحد من أساتذة الفلسفة وطلابها وقراء الكتب والمقالات الفلسفية في بلادنا العربية على وجه العموم وفي الجمهورية العربية المتحدة على وجه الخصوص ، أن الاستاذ زكي يعتبر نفسه بصراحة مطلقة نصيراً أميناً للوضعية المنطقية ، وداعية مخلصاً لهذا الاتجاه الفلسفي الذي ظهر الى الوجود في مستهل العقد الثالث من قرننا العشرين . ولا تشكل سرا مساعيه الجديدة لجعل قرائه ومستمعيه أتباعاً لفلسفة المنطق الوضعي . وهو يقول في مقدمة كتابه (١) : « يعد ديفد هيوم أبا لحركة فلسفية تعاصرنا اليوم ونعاصرها وهي الحركة التي يطلق عليها أنصارها « الوضعية المنطقية » حيناً واسم « التجريبية العلمية » حيناً آخر ، والى هذه الحركة الفلسفية انتمى .. » . وهنا لا بد من طرح هذا السؤال : لماذا صار الفكر المصري منطقياً وضعياً ولم يصبح نصيراً لاتجاه فلسفي آخر من بين المدارس والاتجاهات الفلسفية السائدة في عالمنا المعاصر ؟ ان جواب الدكتور زكي على مثل هذا السؤال نجده في أماكن عديدة من مؤلفاته . فعلى سبيل المثال يقول في مقدمة الطبعة الثانية لكتاب « المنطق الوضعي » : « ان دارس هذا الكتاب اذا ما رضي عما ورد فيه لا بد أن تنتهي به الدراسة الى نظرة علمية تجريبية هي في رأينا شرط لا مفر منه اذا أردنا لانفسنا نهضة فكرية صحيحة » . ان الاستاذ زكي يربط تقدمنا الروحي ، كما يفهم من هذا الاقتباس ، بتبني فلسفة الوضعية المنطقية . وطني ان هذه المدرسة الفلسفية لو سادت في بلادنا وقدر لها القلب لرجعنا القهقري . ذلك أنها تبعد اهتمام الناس عن طرح القضايا والمشكلات التي تواجههم . واعتقد ان تأخرنا الفكري ، ومن ثم تخلفنا في ميادين الحياة الأخرى من صناعية وزراعية وعلمية الخ .. لا محيد عنه لو تبني الناس هذا الطراز من التفكير الفلسفي البعيد عن الفلسفة والحياة الإنسانية والواقع الموضوعي .

وفي مقدمة الطبعة الأولى لكتاب « المنطق الوضعي » يجيب المفكر المصري على التساؤل المطروح سابقاً بحجج شبيهة بما ورد في الاستشهاد الوارد الذكر . فهو يقول : « وكما كان المذهب الوضعي بصفة عامة - والوضعي المنطقي الجديد بصفة خاصة - هو أقرب المذاهب الفكرية مسيطرة للروح العلمي كما يفهمه العلماء الذين يخلقون لنا أسباب الحضارة في معاملهم ، فقد أخذت به أخذ الموائق بصدق دعواه ، وطفقت أنظر بمنظاره الى شتى الدراسات فأمحو منها - لنفسي - ما تقتضيني مبادئ المذهب أن أمحوه » . وهنا لا مناص من أن نسأل هذا السؤال : لم المنطق الوضعي بالذات يعد أقرب الفلسفات مسيطرة للروح العلمي ؟ ان الجواب سيكون واضحاً عندما نذكر سبب «علمية» الفلسفة الوضعية المنطقية . والجدير بالذكر ان المناطقة الوضعيين لا يكتبون باضفاء الطابع العلمي على فلسفتهم فحسب بل يعتبرون ظهور فلسفتهم « ثورة علمية » دكت الميتافيزيقيات السابقة دكا جنرياً وأدت الى « انقلاب » لا نظير له في تاريخ الفكر الفلسفي الإنساني . وفحوى هذه « الثورة العلمية » ان الفلسفة لم تعد تهتم لا بالإنسان ولا بالعالم وانما بالتحليل المنطقي لأقوال العلماء وعبارات الناس في حياتهم اليومية وغداً الفلاسفة يستعملون رموزاً دقيقة مماثلة لرموز العلماء .

(١) ديفد هيوم ، ١٩٥٨ ص ٩٠

الإشترائية التي لا تستند الى الخرافات والاساطير وانما الى العقل والعلم .

ولعل القارئ سيسأل : اذا كانت الوضعية المنطقية غير منتشرة ذاك الانتشار الواسع الخطير فما العبرة من تصويب الرماح ضدها ؟ رسل هناك خوف من انتشارها بهذا القدر المحدود جدا ؟ ان السبب بسيط للغاية ونجده في كلمات الاستاذ محمود أمين العالم : « اذا كنا نشير اليوم قضية الفلسفة بنقد الوضعية المنطقية فذلك لما نجده في هذه المدرسة الفلسفية خاصة من معاداة صريحة للفلسفة والوعي النظري ولما نلمسه من سيادة هذه المدرسة الفلسفية في بعض أروقتنا الجامعية فضلا عن ادراكنا بانها تعبر عن الجوانب المتخلفة في حياتنا الاجتماعية وعن القوى الرجعية في العالم » . (معارك فكرية ، ص ٢٢) ولما كانت الوضعية المنطقية فلسفة متعددة الجوانب والاهتمامات لذا قررت ان أكرس المقال الأول لموضوع الفلسفة ومهامها عند الدكتور زكي على أمل أن أعالج الجوانب الأخرى في مناسبات لاحقة .

موضوع الفلسفة ومهامها

قبل كل شيء لا بد من الإشارة الى اهتمام الاستاذ زكي بموضوع الفلسفة ومهامها اهتماما شديدا ، مع أنه ينظر الى هذه المسائل بمنظار الوضعي المنطقي ويحلها حلا مثاليا - ذاتيا ومغايرا للروح العلمي الذي يدعو الى مراعاته والاخذ به . فموضوع الفلسفة الوحيد، في رأيه، هو التحليل المنطقي لعبارات العلماء وما يقوله الناس في الحياة اليومية المألوفة . ومن أقواله : « ودعوانا في هذا الكتاب هي أن الفلسفة تحسن صنعا لو عرفت على وجه التحديد والدقة أن مجالها هو التحليل والتحليل وحده .. » . (نحو فلسفة علمية ، ص ١٦) . وفي مؤلف آخر يؤكد هذا الرأي بقوله : « .. لقد صح القول بأن الفلسفة لم تعد شيئا سوى المنطق التحليلي » . (برتراند راسل ، ص ٤٠)

وبناء على هذا النظر يتبادر الى الذهن أن الفلسفة ليس بمستطاعها أن تقدم لنا معلومات جديدة عن العالم بالإضافة الى أنها لا تملك الحق في ذلك لأنها تعدى الحدود المتصرف بها من قبل المناطقة الوضعيين وتخرج على وظيفتها المقررة . وبهذا الصدد ينقد الاستاذ الدكتور بوغومولوف الفهم الوضعي المنطقي لموضوع الفلسفة قائلا : « ان الفلسفة ليس بإمكانها أن تحمل معلومات جديدة . فهي تملك فقط شأن توضيح ما يقوله العلم أو التجربة العادية . هذا هو الاستنتاج من فهم الوضعية الحديثة (أي الوضعية المنطقية) لموضوع الفلسفة » . (الفلسفة الانجلو - أميركية ، ١٩٦٤ ص ٢٧٩) .

ان الشغل الشاغل للفلسفة يجب ان يكون التحليل فقط نظرا لان الفيلسوف لا يملك الوسائل والادوات من أجل البحث والاستقصاء فضلا عن انه ليس ملزما باجراء التجارب والقيام بالملاحظات والملاحظات لفرض الوصول الى أحكام اخبارية ازاء العالم . فهذا من شأن العلماء لا الفلاسفة . « ليس هناك من عالم الا عالم الواقع - يقول الدكتور زكي - وليس لاحد أن يتحدث عن العالم حديثا موضوعيا الا رجال العلوم المختلفة والفلسفة أن تجيء بعد ذلك فتحلل وتوضح ، للعلم أن يقرر وللفلسفة أن توضح له ما يقرره .. » . (نحو فلسفة علمية ، ص ٨١) .

وهكذا نرى ان اهتمام « الفلسفة العلمية » يجب أن ينصب على تحليل عبارات العلوم والعلماء !

ان الاستاذ زكي يسعى جاهدا لتحديد ميادين العلوم المادية التجريبية والفلسفة . وهذا أمر لازم وضروري اذ لا غنى عن التفريق بين مواضيع ومهام كل من هذه العلوم والفلسفة والا غدا من الصعب التمييز بين ميدان هذا العلم ومجال ذلك العلم . بيد أن الفكر العربي يقوم باجراء تحديد يفضي الى ذوبان الفلسفة باسم التحليل . فاعتبار التحليل المنطقي مسألة الاسئلة للفلسفة يعني تحويل الفلسفة الى منطقي . والجدير بالملاحظة انه لا يخفي هذه النية ، فهو يقول بصراحة :

« فليس موضوع البحث الان « أشياء » ولكنه « جمل » ، ليس موضوعي البحث الآن هو « الكون » بل هو هذه العبارة المينة او تلك وما تحليلها وما مضمونها وما مكوناتها ؟ بهذا يربط الفلاسفة أنفسهم بتدنيا العلم ودنيا الحياة اليومية بدل أن يتعالوا على الدنيا على أساس انها باطلة بحثا عن عالم « حقيقي » وراء هذا العالم المحسوس ! وبهذا تصبح الفلسفة منطقا صرفا كما يقول برتراند رسل في محاضراته التي نشرها عام ١٩١٤ بعنوان « المنطق هو صميم الفلسفة » فضلا من كتابه « علمنا بالعالم الخارجي » . (نحو فلسفة علمية ، ص ١٨) . وفي مؤلفه « فلسفة وفن » ص ٢٧ يقول : « وبهذا تصبح الفلسفة هي التحليل المنطقي بدل أن يكون التحليل المنطقي جزءا من الفلسفة » . ليس من شك في أن التحليل المنطقي ذو أهمية بالغة ودلالة كبرى .

وكل فيلسوف ينكر هذا الأمر يعد متخلفا جدا عن العصر الذي نعيش فيه سيما ان تطور العلوم القديمة وظهور علوم جديدة أدبيا الى توطيد مكانه وتشبث مواقعها وأصبح أحد الادوات المعرفية اللازمة في بحثنا ومعرفتنا للعالم . وقد ازدادت دلالاته على وجه الخصوص بفضل تطور المنطق الرياضي (الرمزي) والسيبرنطيقا والرياضة اللغوية وعلم الرموز وصنع الآلات المنطقية . بيد أن اعتبار التحليل المنطقي الموضوع الوحيد للفلسفة وشغلها الشاغل يعني انتهاك حقوق الفلسفة الأخرى وتجريدها من النظر الشامل العام . وستصبح الفلسفة علما منطقيًا رمزيا يستند الى المنطق الرياضي وحده نظرا لان علمية الفلسفة ، في نظر الدكتور زكي ، تنجسد في استخدام الفلسفة لرموز دقيقة تشبه دقة العلماء في استخدام الرموز . وبذلك يتحول منهج المنطق الصوري في مرحلته الرياضية (الرمزية) الى منهج رئيسي ، لدى المناطقة الوضعيين ، في حل القضايا الفلسفية وأقوال العلماء . ولا يفوتنا في هذا المقام ان نشير الى ان رد العلاقات المعقدة بين الموضوعات المختلفة الى علاقات ذات طابع كمي يفضي الى نظرة ضيقة وحيدة الجانب ويؤدي الى عدم اعتبار تشابك العلاقات التي لا يمكن ان تتسم بالكمية فقط . وفي هذا الصدد كتب استاذ المنطق الدكتور غورسكي ما يلي : « ان استخدام مناهج المنطق الرياضي كميثودولوجيا وحيدة في تحليل العلوم كلها يعني رد العلاقات المعقدة كلها بين الموضوعات المينة المختلفة نوعيا الى علاقات ذات طابع كمي غالبا أو ذات طابع أكثر بساطة » . (المثالية الذاتية المعاصرة ، ص ٢٢٣) .

ان اتفاقنا مع نقد الدكتور غورسكي للمنهج الرياضي المنطقي لا نود منه التقليل من شأن التحليل المنطقي في الفلسفة . فلا محيص لنا من استخدام المنطق الرمزي أثناء معالجة مسائل الفلسفة اذا رأينا ان البحث يستوجب هذا الاستخدام . غير أن اعتباره المنهج الرئيسي للفلسفة يشكل نقیصة الوضعيين المحدثين كلهم بما فيهم الدكتور زكي . فالتحليل المنطقي الذي يقف عند استعمال هذا المنهج ليس قادرا على تكوين تصور شامل ازاء بناء المعرفة العلمية على وجه العموم والمعرفة الفلسفية على وجه الخصوص نظرا لان نشاط التفكير البشري لا يمكن حصره في نطاق التحليل المنطقي فضلا عن ان المنهج المنطقي الرياضي لا يستطيع أن يتناول بالتحليل الا جزءا بسيطا جدا من العمليات الفكرية المنعكسة في دماغ الانسان .

ان مفكرنا العربي اذ يستخدم التحليل المنطقي انما يسعى للبرهنة على أن ما يسمى « بالمشكلات الفلسفية » تظهر بسبب وجود غموض وإبهام في استعمال رموز العبارات . وقد كتب ما يلي : « اننا نحن التجريبيين العلميين لعلى يقين بان ما قد جرى العرف على تسميته « بمشكلات فلسفية » ان هو الا غموض في استخدام الرموز اللفظية ، ولو استفقنا لهذه الرموز طريق استخدامها لتبخرت تلك المشكلات في الهواء وزالت .. » (نحو فلسفة علمية ، المقدمة ، ص ١) .

وهكذا فالمشكلات الفلسفية ما هي الا تطبيق غير صحيح للرموز . ويستنتج من ذلك أن تأملات الفلاسفة وجهودهم الفكرية في الماضي والحاضر (وفي المستقبل) عابثة ولا فائدة من الاطلاع عليها والقيام بتطويرها على الرغم من مساعيهم الحثيثة لطرح وحل المشكلات الفلسفية

(نحو فلسفة علمية ، ص ١٢) .

وعندما يتابع تحديد موضوع الفلسفة ومهامها ، يجعل اللغة وفي المقام الاول علاقة الرمز بأشياء ووقائع العالم الخارجي موضوع ما يسمى بالفلسفة التحليلية المعاصرة . وبهذا التحديد ينتقل مفكرنا العربي الى جانب الفلسفة التحليلية معتبرا اللغة موضوع الفلسفة لانها تعد « أداة علمية » . فان كانت الفلسفة اهتمت ، في السابق ، باللغة من ناحية البناء والتركيب ، فالدكتور زكي اذ تطور فلسفته يرى ان « محور البحث الفلسفي عند جماعة فينا ومن جرى مجراهم ، هو اللغة دلالة وتركيبا ، فان كانت الدلالة هي هدف البحث ، حصروا انتباههم في علاقة التطابق بين الصورة اللغوية من جهة والمصور العيني من جهة أخرى » . (نحو فلسفة علمية ، ص ٦٦ - ٦٧) . ويسمى تعريف هذه العلاقة بين اللغة وعالم الاشياء السيمية « أي « علم السمات » . انه يظن ان معنى كلمة من الكلمات يتحدد بالإشارة ، قبل كل شيء ، الى الشيء الذي تعنيه الكلمة . ومن الملاحظ ان الاستاذ زكي لا يعترف بان الكلمة عبارة عن تجريد وتعميم . فهو ينظر الى الكلمات والجمل واللغة على أساس انها رموز ذات معنى . ومن رأيه ان الرمز ليس شيئا فحسب بل المعنى كذلك . وبالتالي يمكن الحكم على انه لا يقر بأن المعنى ليس شيئا ، متجاهلا انه عبارة عن ما ينعكس في الرمز .

ان المفكر العربي يؤكد على ان « اللغة باعتبارها رموزا تشير الى عالم الاشياء هي وحدها المجال الذي تجول فيه الفلسفة بالمعنى الذي نريده لها ، ومن ثم نفهم ما يقال الان عن الفلسفة - على الاقل بالمعنى الذي نريده لها - انها علم « المعنى » » . (نحو فلسفة علمية ، ص ١١٧) . ولا يقف عند هذا الحد بل يظن ان مسألة المسائل بالنسبة لعظم الفلاسفة في عصرنا هي استقصاء ودراسة « المعنى » . وهذا يعني انه يعتبر « علم السمات » ضربا جديدا من ضروب الوضعية الحديثة . ومن الحق ان نقول ان مفكرنا ينتقل من الاشارة بالتحليل المنطقي لصورة العبارات الخالصة صوب تحليلها من ناحية المعنى . ويتم هذا التحليل بالإشارة الى موضوع تجربتنا . أما ان كان الرمز لا يشير الى أي موضوع من موضوعات العالم الخارجي فلا بد ان يكون بلا معنى وذلك لان معنى الرمز مرتبط بالموضوع المرموز اليه . ونستخلص من ذلك ان معنى العبارة يتحدد بتلك التجارب الحسية التي تشير اليها العبارات . ان كل شيء يحصل على معنى من خلال وجود الانسان وادراكاته الحسية فقط . « أما نحن أصحاب المذهب التجريبي العلمي في الفلسفة فموقفنا صريح ، يقول القائل عبارته فنسأله : هل هي منصرفة الى شيء خارجي ؟ فان اجاب بالاجاب سألناه من فورنا : أين الخبرة الحسية التي تؤيد ذلك ؟ فاذا عجز عن أن يشير لنا الى كائنات حسية هي التي تنصرف اليها عبارته التي نطق بها حكمنا على عبارته هذه لا بالظلال فحسب بل بظلالها من المعنى اذ « المعنى » هو بعينه الخبرات الحسية التي يرمز اليها الكلام الذي نزع له ذلك المعنى » . (فلسفة وفن ، ص ٥٨) .

انه لمن غير الصعب أن ندرك ، من خلال هذا الاستشهاد ، الفهم الضيق لكل من المعنى والرمز . ففهمه يحمل طابعا مثاليا - ذاتيا نظريا لانه يربط وجود موجودات العالم الخارجي المشار اليها بالرموز بالتجارب الحسية للانسان . ان ما يود الدكتور زكي أن يقوله هو : لا وجود للموضوع بدون الذات . وهذا هو صميم الفلسفة المثالية - الذاتية .

وبعد هذا العرض لموضوع ومهام الفلسفة في مؤلفات الدكتور زكي أرى أنه لا مناص من القاء بعض الضوء على الجوانب الرئيسية في فهمنا المغاير لوجهة النظر الوضعية المنطقية فضلا عن النقد الذي وجهناه أثناء عرضنا لموقفه الفلسفي .

بادئ ذي بدء لا غنى عن القول ان لكل علم من العلوم ميدان نشاط يجول فيه . وما دامت الفلسفة علما قائما بذاته ومستقلا ، نسبيا ، عن غيره من العلوم المادية والإنسانية ، فهي تتناول بالبحث ما يجري وينور في مجال اختصاصها على أساس انها احدى صور الوعي الاجتماعي الإنساني . وما من شك في أن كل شكل من اشكال الوعي الاجتماعي -

على مدى أكثر من ألفي سنة . فلو خمن الفلاسفة والمفكرون ان الامر لا يتجاوز الاستعمال الخاطيء للرموز واستخدموها بصورة صحيحة لزالَت المشكلات الفلسفية واختفت بدورها الفلسفة من الوجود . والذي لا ريب فيه أن هذا الفهم للمشكلات الفلسفية خاطيء في أساسه . فالمسألة لا تتخطى عدم الوضوح في لغة الفلاسفة والمشكلات الفلسفية ما هي الا أمر يتعلق باللغة الرمزية ان صح هذا التعبير . « ان رجال التحليل في الفلسفة الحديثة لم يكادوا يتناولون بالتحليل مشكلات الفلسفة التقليدية حتى تبين لهم في وضوح الأ أشكال ، وان الامر كله غموض في لغة الفلاسفة ، هو الذي خيل لهم انهم ازاء مشكلات تريد الحل ولا حل هناك ، فهل النفس خالدة أم فانية ؟ هل يكون هذا العالم المحسوس قائما وحده أم ان وراءه عالما عقليا آخر ؟ هل الوجود الحقيقي هو الافراد الجزئية أم الحقائق الكلية التي تعبر عن نفسها في تلك الافراد ؟ وهكذا من أمثال هذه الاسئلة التي لم يزل الفلاسفة التاملون يلقونها ويحاولون الجواب ولا جواب ، فيتناول فيلسوف التحليل هذه العبارات نفسها ليفض مغاليتها اللغوية واذا هي فارغة لا تنطوي على شيء واذا هذه المشكلات المزعومة الموهومة تقوب ثم تتبخر في الهواء وتختفي » . (نحو فلسفة علمية ، ص ١١) . ليس من الصعب على القارئ الذي ينعم النظر في هذا الاقتباس الطويل أن يستنتج منه أن الدكتور زكي لا يريد اعطاء جواب محدد يضعه في صف واحد مع المثاليين أو الماديين . وعلى كل حال فهو يقف في معسكر المثاليين مع انه لا يقول ذلك بصراحة . فاعتبار المشكلات الفلسفية مشكلات وهمية مزعومة يشهد على أن الوضعيين المناطقة بما فيهم الدكتور زكي يحيون عن المسألة الأساسية في الفلسفة . تلك المسألة التي تكشف عن العلاقة بين الوجود والتفكير بتبيان أسبقية الوعي أو الوجود . انه لمن الخطأ الفاحش أن نزع من المشكلات الفلسفية برمتها « مشكلات لغوية خالصة » . فالممارسة الاجتماعية للإنسانية تقود الى الفهم الواقعي العلمي للعلاقة بين الفلسفة واللغة والواقع . يقول الاستاذ نارسكي أحد كبار نقاد الوضعية القديمة والحديثة : « لو كان وجود العالم المادي خارجا وخارج الوعي البشري « مشكلة لغوية » فقط لما كان من الممكن أن يحصل على تفسير مقنع لا لواقعة وحدة تجربتنا ووحدة المراحل النسقة لتطور الظواهر ولا للتعاقب في العلم ولا لاختلاف رؤية الاحلام المبدي عن الادراكات العادية للاشياء في خارجنا وكذلك تمييز الذات بصورة عامة من الوسط المحيط . لقد برزت المشكلات الفلسفية من جراء متطلبات العلوم الطبيعية المتطورة والطبقات الاجتماعية المتصارعة . وهذا الحل أو ذاك لهذه المشكلات يؤثر في نهاية المطاف في النشاط العملي والعلمي والسياسي للناس » . (الوضعية المعاصرة ص ٨٢) .

ان الدكتور زكي اذ تطور آراءه يعتبر ان العلم يهتم بالمعرفة من حيث المضمون أو المادة بينما الفلسفة تعبر أهمية الى الشكل أو الاطار الذي يتألف من الفاظ لغوية تشكل على هذا النحو أو ذاك لتكون هذه الفكرة أو تلك . ان العلم يتناول مضمون العبارة اللغوية أما الفلسفية فتعني بطريقة بناء العبارات على أساس القواعد المنطقية العامة التي تسري على كل اللغات . « لو تناولت قضية علمية معينة وحللت عبارتها تحليلا يبرز خصائصها المنطقية فانت عندئذ لا تبحث في مادة ذلك العلم بل تبحث في منطق ، والفلسفة عند جماعة فينا ومن يدور مدارهم هي منطق العلوم بهذا المعنى » . (نحو فلسفة علمية ص ٦٦) .

ان هدف الدكتور زكي منصب على البرهنة على أن الفلسفة علم غير مضموني وانها مجرد نشاط شكلي لا يهيمه الا الاطار أو الصورة . فلو كان التحليل المنطقي لعبارة ما موجهها أيضا نحو المضمون ومدى صحة انعكاس الواقع الموضوعي فيه لكان ذلك مقبولا ، بيد انه يرى في التحليل المنطقي ما لا يجب أن يكون عليه . وبذلك يصبح التحليل المنطقي تحليلا شكليا لا مضمونيا . « التحليل المنطقي لعبارة ما هو في حقيقة أمره شيء مستقل عن مضمون العبارة وفحواها ، اذ يتناول صورة التركيب وما فيها من علاقات ويفرغ من العبارة فحواها .. » .

السياسة ، القانون ، الأخلاق ، الفن ، العلم ، الدين ، الفلسفة -
يتم بخصائص مميزة ويضع أمامه مهام وأهدافا مختلفة . وانطلاقا
من ذلك : ما هي الفلسفة ؟ وما موضوعها ؟ وما هي المهام الملقاة
على عاتقها ؟

ولكن قبل أن نجيب على هذه الأسئلة المطروحة ، نرى من الضروري
تقديم لمحة تاريخية عن نشأة الفلسفة و زمن ظهورها تساعد في الإجابة
على مثل هذه الأسئلة . أن الفلسفة لم تظهر مع بدء انبثاق المجتمع
البشري نظرا لأنها تمثل صورة عالية وراقية من صور وعي الإنسان .
ولما كان الوعي البشري بدائيا في مرحلته الأولى ، فإنه لم يكن بمقدوره
أن يبدع فلسفات على شكل نظم ومذاهب متكاملة ومتناسقة من ناحية
منطقية مع أن التفكير الفلسفي الساذج كان من سمات الإنسان البدائي
الذي فكر في وجوده واصله وحياته ومماته الخ . . ولم يزل سائدا
لدى الناس الذين لم يصلوا الى مستوى ثقافي يساعدهم على إبداء
فلسفاتهم بصورة منطقية متسلسلة . كما أن الجهد الذهني لم يكن
منفصلا عن العمل اليدوي لحاجة الناس الماسة لسبل قسارى جهودهم
ومساعدهم من أجل الحصول على القوت اللازم للاستمرار في البقاء
سيما وأن الظروف آنذاك كانت قاسية جدا بحيث أنها لم تسمح
للإنسان أن يكرس حتى ولو جزءا صغيرا من وقته ليتأمل فلسفيا ولكي
يفكر مليا في الوجود ومكان الإنسان فيه ، إلى غير ذلك من المسائل
الفلسفية . مضافا الى ذلك عدم سماح الأحوال الاقتصادية بقيام
طبقات تستغل بعضها البعض ليبقى ، للطبقة المستغلة ، متسع من
الوقت تخصصه لا لفرض الحصول على القوت وإنما لهدف التفكير
فلسفيا والتأمل في كل ما يشر التامل في الطبيعة والمجتمع و حياة
الإنسان . لقد كانت وسائل الإنتاج في المجتمع البشري البدائي ملكا
يخص الجميع دون استثناء وبذلك انتهى الاستغلال نهائيا . كما أن
المستوى المنخفض جدا للإنتاج لم يجعل ممكنا عيش طبقة من الناس
على حساب الأخرى ناهيك أن جهود الجميع قاطبة لم تكن كافية لحياة
الناس كلهم . وبالتالي المجتمع الى مرحلة عليا في تطوره ظهرت الفلسفة
كصورة للوعي تناسب الطور الجديد . وغني عن القول أن المجتمع
العبودي الذي تكون من طبقتي الأرقاء والكمي العبيد كان أول المجتمعات
الصالحة لنشوء الفلسفة . والتاريخ يثبت أن ميلادها حدث في
المجتمعات العبودية التي كانت سائدة آنذاك في الصين والهند ومصر
وبابلون قبل نحو ٢٠ قرنا ومن ثم في اليونان والإمبراطورية الرومانية.
أن ارتفاع مستوى الإنتاج وانقسام المجتمع الى طبقتين مستغلة ومستغلة
أفضيا الى انبثاق مقدمات للفلسفة خاصة وأن العمل الفكري انفصل
من أسار العمل اليدوي وغدا في مقدور الفئة المستغلة أن تفكر وتتأمل
فلسفيا . وهكذا برزت الحاجة الى الصياغة النظرية الفلسفية لمصالح
الطبقات والفئات الاجتماعية المتصارعة . ويدل هذا على أن الفلسفة
ليست صورة لعرفه الواقع فقط بل عبارة عن ايدولوجية للدفاع عن
مصالح طبقة من الطبقات . لذلك تعتبر كل فلسفة تعبر عن أهداف
الطبقة الصاعدة فلسفة متفقة مع التطور الموضوعي للتاريخ البشري
ومساعدة على تقدم الإنسانية ، أما تلك التي تحمي وتدافع عن غايات
الطبقة المحافظة التي انتهى دورها فهي تؤدي دورا يناق السبر التقدمي
للشبية . بيد أن هذا التفسير لا يعني أبدا أن الفلسفة متصلة بصورة
مباشرة بالمصالح الاقتصادية لهذه الطبقة أو تلك ولا يدل على أن
الدوافع الاقتصادية وحيدة في ظهور الفلسفة وخدمتها للتأخر أم للتقدم.
فالاقتصاد يؤثر في نهاية المطاف فقط وعسن طريق غير مرئية ببساطة
ويسر . والتسلسل في التطور الفلسفي للشبية جمعاء بغض النظر عن
خدمة هذا النظام الفلسفي أو ذاك للطبقة الصاعدة أو الطبقة المحافظة
خير شاهد على قولنا . فاستعراض تاريخ الفكر والتعاليم الفلسفية
ثبت لنا أن هنالك فلسفة لاحقة وأخرى سابقة بالإضافة الى الصلة
الوثيقة القائمة بينهما . وكمن الفلاسفة من اعتبر فلسفته مبتكرة
وفريدة في نوعها ولكن سرعان ما كشف التمهيص عن الصلة الموجودة مع
من سبقها من الأنظمة والمدارس الفلسفية . ذلك لأن المصالح الاقتصادية

لا تفعل فعلها الا في معالجة هذه المواد الفكرية والفلسفية وتطويرها
وتحويلها لخدمة أغراض الطبقة المقصودة .

وبعد هذه النبرة نعود لنسال : ما موضوع الفلسفة وما مهامها ؟
أن مسالة العلاقة بين الوعي والمادة أو التفكير والوجود أهم ما في
موضوع الفلسفة . فهذه المسألة عبارة عن نقطة انطلاق تحدد المواقف
الفكرية الأخرى وتعتبر قاعدة للبناء الفلسفي كله . والإجابة على هذا
السؤال يقضي الى وقوف المفكر في صف المثاليين أو في معسكر
المواقفين العلميين . فقولنا : المادة أو الوجود يسبق الوعي أو التفكير
معناه تبني الواقعية في الفلسفة . أما قولنا : الوعي يسبق الوجود
فمؤداه رفض الاتجاه الواقعي وقرار المثالية على صورة من صورها
المعروفة . واعتبار الدكتور زكي مشكلات الفلسفة : هل النفس خالدة
أم فانية ؟ وهل هذا العالم المحسوس وحده أم أن وراءه عالما آخر ؟
وغيرها من المشكلات مشكلات مزعومة موهومة لا تتجاوز مسالة العلاقة
بين الوعي والوجود . ولا شك أن رفض الإجابة دليل على اللادورية
التي يتبناها الدكتور زكي وهي قريبة من المثالية قريبا شديدا .

أما العلاقة بين الفلسفة والعلوم فلا تتجسد في التحليل المنطقي
لاقوال العلماء على غرار ما يفكر المناطقة الوضعيون . فالفلسفة تتميز
عن العلوم بالنظر الى الوجود من جهة قوانينه الأثر عمومية وشمولا
ومن جانب وحدته المادية التي تظهر في تنوع الظواهر والموجودات
والعمليات المحيطة بنا . وفي أحقاب زمنية طويلة كانت الفلسفة تضم
في أحضانها العلوم الأخرى نتيجة لعدم تطورها بصورة تسمح بانفصالها.
وبناء على ذلك بحثت الفلسفة في مسائل غدت بعدئذ من اختصاص
العلوم المنفصلة .

أن كل علم من العلوم يبحث في العالم الموضوعي والإنسان من زاوية
محددة ومن ناحية علاقاته وصلاته الخاصة التي لا تتخطى النطاق
المعين . لذا كان موضوع كل علم يختلف عن الآخر مع أن بعض المواضيع
غدت مشتركة بين عدمن العلوم وصار كل علم يعالجه بطريقة الخاصة.
وأن كان هذا العلم يتناول بالدرس والبحث هذه الخواص والعلاقات
التي تتصف بها الوقائع والظواهر في عالنا الخارجي أو الداخلي وذاك
العلم يبحث في صلات وقوانين جانب معين من جوانب الوجود المادي
أو البشري ، فالفلسفة لا تتدخل في شؤون الفيزياء ، مثلا ليفسد
موضوعها موضوعا لها ولا تدس أنفها في قوانين الكيمياء لتستحيل هدفا
من أهداف الفلسفة . فموضوع الفلسفة يتمثل في القوانين والمقولات
العامة التي تخضع لها ظاهرات وعمليات الوجود الطبيعي والبشري
والفكر الإنساني . وهي لا تبحث في قوانين هذه الظاهرة أو تلك العملية
فحسب بل تهتم بالقوانين التي تسري على جميع الظاهرات والموضوعات.
أن اهتمامات الفلسفة والعلوم تكمل بعضها البعض وليس هناك تناقض
بين ما تهتم به الفلسفة وما تبحث فيه العلوم . أن التناقض ينبثق
عندما تريد الفلسفة أن تتحول الى « علم العلوم » أو في الوقت الذي
تسمى فيه العلوم الى تنويب الفلسفة في التحليل المنطقي . ولا شك
في أن القوانين والمقولات العامة الشاملة عبارة عن انعكاس في أدمغة
الناس للحركات الدائرة في الطبيعة والمجتمع والفكر الإنساني . وهي
تحمل طابعا موضوعيا مستغلا عن وجودنا وأدراكنا لها .

أن هذه الأحكام لا تشير الى أن الصلة معدومة بين الفلسفة
والعلوم ولا تدل على أن الفلسفة تتف فوق العلوم أو تحتها . فالعلاقة
ترتدي طابعا جدليا . فالفلسفة تقتني بمعطيات العلوم الطبيعية
والإنسانية وتقوم بتعميمها . هذا هو الشق الأول من المعادلة ، أما
الشق الأخر فيظهر في استفادة العلوم من الفلسفة من الناحية
الميثودولوجية نظرا لأن الفلسفة تزود الناس ، وبخاصة العلماء ،
بنظرة عامة شاملة الى الكون والمجتمع والإنسان لا غنى عنها في أي
ميدان من الميادين .

أن الفلسفة تمثل منهجا علميا يهتدى به في دراسة ظواهر الطبيعة
والمجتمع وعمليات الفكر البشري ، وهي لا يمكن أن تؤدي « دورا
توضيحيا » فقط لما « يقرره العلم والعلماء » .